

صالح جودت

ورقة عمل . . . للأدب والفن





دار حوار بين صحفية شابة متفتحة ، وبين قاصصنا الاجتماعى اللامع نجيب محفوظ

قالت : ماذا تكتب الآن ؟

قال : لا شئ

قالت : ولماذا ؟

قال : لأننى لا أستطيع أن أكتب وأنا مرتاح النفس . وأنا مرتاح النفس بالفعل منذ النصر الذى حققناه فى السادس من أكتوبر . والفنان لا يبدع إلا إذا كان واقعاً تحت تأثير انفعال عنيف ، كالانفعال الذى عانىته بعد محنة ١٩٦٧ وأحسب أن نجيب محفوظ صادق كل الصدق فى هذا القول . وليس معنى هذا أنه لن يكتب عن حدث السادس من أكتوبر ، ولكن ليس الآن . . . بل بعد حين ، بعد أن تستقر الأحداث وترسو على مرفأ فى نهاية شاطئ المعركة . . كما فعل توفيق الحكيم من قبل ، حين سجل انفعالاته بثورة سنة ١٩١٩ فى رواية « عودة الروح » التى كتبها فى سنة ١٩٣٦ ، أونحو ذلك

ولعلنى أروى هذه الحكاية ، لأقول إن الانفعالات القاسية تهز شجرة الفنان

لتطرح ثمارها ، أكثر مما تهزه الانفعالات السعيدة
وأعود إلى نجيب محفوظ ، وأضرب المثل بمجموعته القصصية « تحت المظلة »
التي لم يفهمها أكثر من قراءها ، في حين اعتبرها أنا من أعظم أعماله .
لم يفهمها أكثر من قراءها ، لأن نجيب محفوظ استعان فيها بالرمز المفرق ،
إذ كتبها في عصر أسود - هو عصر النكسة ، وما قبلها مباشرة ، وما بعدها مباشرة -
وهو عصر لم يكن الحاكم فيه يسمح لقلم أن يقول ما يريد ، فلم يجد نجيب محفوظ
بدا من الالتجاء إلى الرمز الذي لا يفهمه الحاكم ، ولا يفهمه المقربون إليه والهامسون
في أذنه ، تماماً كما لم يفهمه أكثر القراء
ولوفطن القارئ الذكي إلى سطر مكتوب بخط دقيق على بعض صفحات قصة
« تحت المظلة » يقول إن أحداث هذه القصة قد وقعت بين شهرى كذا وكذا
سنة ١٩٦٧ ، لقفز إلى ذهنه لأول وهلة ، وبمجرد وقوع نظره على هذا الرقم المشتم
أنه لا بد أن يكون وراء هذا الرمز كلام . . وكلام له معناه الكبير
ودعوني أحاول . . لا أن أفك هذا الرمز ، بل أن أقربه ، مجرد تقريب ، إلى
ذهن كل قارئ

فالناس الذين وقفوا تحت مظلة الأوتوبيس في مستهل سنة ١٩٦٧ ، في انتظار
الأوتوبيس الذى لا يأتى أبداً ، هم الشعب . . الشعب الذى ينتظر وسيلة للحركة
تنتقل به ولو محطة واحدة إلى الأمام . . والوسيلة لا تلوح فى الأفق أبداً

والرجل الذى يخرج من حارة ويعبر الميدان ويدخل الحارة المقابلة ، والناس
حوله يعدون صارخين « حرامى . . حرامى » . . ثم لا يلبث الرجل أن يخرج من
الحارة ويغنى ، والناس - الذين لقبوه بالحرامى من قبل - يخرجون وراءه ويغنون
معه ويصفقون له . . هم أنفسهم الذين قال فيهم شوقي من قبل . . فى رواية مصرع
كليوباترا :

انظر الشعب . . ديون كيف يوحون إليه
ملاً الجوهتافاً بحياتى قانليه

أثر البهتان فيه وانطلق الزور عليه
بأله من بغاء عقله في أذنيه

والسيارتان اللتان اصطدمتا وسط الميدان ، وراح في الحادث كثير من الضحايا التي كست دماؤها الأرض بالأرجوان ، هما القوتان المتعاديتان اللتان تصارعتا في ذلك التاريخ . وسقط في صراعهما من جانبنا عشرون ألف قتيل

والرجل الواقف في الشرفة المطلة على الميدان ، يلوح لامرأة واقفة في الشرفة المقابلة ، يسألها أن تهبط للقائه . وتستجيب له ويتم لقاءهما فوق البساط الأرجواني المصنوع من دماء الشهداء . . هذا الرجل . غفر الله له . كان يستطيع أن يغير وجه المأساة . . لولا أنه كان مشغولا بالمرأة الواقفة قبالة في الشرفة . .

والشرطي الذي يظهر في نهاية القصة ، ويطلق الرصاص على الجميع . .
الجميع بغير استثناء . . هو التاريخ . . الذي حكم على كل هؤلاء . . على اللص المغنى . . . وعلى المرأة . . . وعلى عشيقها . . . وحتى على الناس الواقفين في انتظار الأوتوبيس في سلبية وجمود . حكم عليهم جميعاً بالموت . . . لعل جيلا جديدا أفضل منهم يقوم من بعدهم ، ويستدعي الأوتوبيس ، ويواصل به مسيرة التقدم . . . المسيرة التي تقف الآن عند محطة السادس من أكتوبر . . . وتذهب لمزيد من السير

• • •

هذا حديث ليس في السياسة . ولكنه في سيد العلوم الإنسانية ، وهو الأدب والعلوم الإنسانية هي المحرك للأدب في كل زمان ومكان
فلو تأملنا مسرح «أوزبورن» . . . مثلا . . لوجدنا أن خلاصته هي قول أوزبورن : أريد للإنسان أن يشعر . لا أن يفكر
وإذا كان أوزبورن يعالج مشكلة الفرد ، كأساس للمجتمع ، فإن خادما

آخر من خدام المسرح ، مثل «آردن» . . . يعالج مجموعات الناس ، ويرسم بهم صورة المجتمع الذى يريد أن يعالجه ، فهو حين يرى الفساد فى المدينة ، يركز الفساد فى سرا المدينة - التى هى بلديتها - ويقدم لك النماذج الفاسدة فى مستشار البلدية ، ومحاسب البلدية ، ومهندس البلدية ، وموظفى البلدية
يد أن الرجلين يلتقيان فى أن فساد الفرد ، سواء بذاته ، أو بأمثاله ، هو سبب الضلال فى المدينة

ولكن شكسبير يلخص الرايين فى رأى واحد ، فيقول لك إن الملك هورأس المجتمع ، وصحة الملك الجسدية والنفسية هى التى ترسم حالة المجتمع ، وتقرر مصير المجتمع

وليت القارئ يجتهد فى هذا «التطبيق» . . . كما كان يفعل فى دروس المدرسة الثانوية . . . فيطبق هذه المذاهب جميعاً على قصة «تحت المظلة» ليفك رموزها ويعرف فى أى عصر كنا نعيش

المهم . . . أن الرمزية كانت لغة الأعمال الكبيرة فى ذلك العهد ، لأن الكاتب لم يكن يملك إلا أن يلجأ إليها

وإذا كانت الرمزية لغة من لغات الانغلاق فى عصور الانغلاق ، لم تسد القصة وحدها ، بل سادت الشعر أكثر مما سادت القصة . . . والرواية والمسرحية أيضاً . . . فإنها لم تستطع أن تخدم قضايا الشعب لقصورها عن الإفصاح والتوضيح

أما الأعمال الفنية التى تكتب فى ظلال الحرية ، فهى وحدها التى تستطيع أن تخدم قضايا المجتمع

خذ مثلاً رواية «العدالة» للكاتب المسرحى الكبير جولووردى
فى هذه المسرحية فصل كامل لا نظير له فى أى عمل فى تاريخ المسرح

فصل كامل لرجل متهم في جريمة ، محكوم عليه بالحبس الانفرادى في زنزانه .
ويرسم لك المؤلف - طوال هذا الفصل - تأثير الحبس الانفرادى على إنسانية
الإنسان . . . الذى يتقلب بين لحظة وأخرى من قرد إلى أسد إلى هر إلى ثعلب
إلى أنب إلى ثعبان إلى . . . إلى أن يرتد إنساناً مسكيناً مغلوباً على أمره فى أشقى
وأتعس صورة بشرية

هذه المسرحية ، حينما عرضت فى لندن ، ودعى إليها الناس لمشاهدتها ، اجتمع
مجلس العموم البريطانى على وجه الاستعجال . وقرر إلغاء الحبس الانفرادى
هذا هو النوع من الأدب الواضح المفصح الذى يستطيع أن ينجدم قضايا
المجتمع ، ويحل مشاكله

• • •

جدّ بنا الحديث . . .

فهل جددنا معه ؟

بصراحة ، لقد وقفنا بعد ١٥ مايو سنة ١٩٧١ نتساءل : لماذا لم نستطع العشرون
سنة الماضية أن نتج من الأقطاب والأعلام أمثالا لما كانت تنجبه مصر من قبل ؟
إن التماثيل الكبرى فى حياتنا : شوقى وحافظ وعزيز أباظة وأعلام أبولو فى مجال
الشعر . . . والعقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم فى مجال القصة . . . ويوسف وهبى وجورج
أبيض ونجيب الريحانى فى مجال المسرح . . . وأم كلثوم وعبد الوهاب فى مجال
الغناء . . . وزكريا أحمد ورياض السباطى والقصبجى فى مجال التلحين . .
كل أولئك من نتاج عهود ما قبل سنة ١٩٥٢

فلماذا توقفت مصر عن العطاء على مدى عشرين سنة ، بعد أن كان عطاؤها
بالغ السخاء ؟

الجواب : أن المواهب لا تفتح فى ظل النظم البوليسية
يقول الكاتب الروسى الكبير سولجينسكين ، الذى طرد من وطنه أخيراً :

إن الحكومات البوليسية تكره كتاب الدرجة الأولى ، لأنها تعتبر كلا منهم حكومة داخل الحكومة ، ولهذا فإنها تعتمد دائماً على كتاب الدرجة الثالثة

وما يسرى على الأدب ، يسرى على كل صناعة فكرية .

ولهذا كثر كتاب الدرجة الثالثة ، وفنانو الدرجة الثالثة ، على مدى السنوات العشرين الماضية ، فهبط مستوى الأدب ، وهبط مستوى الفنون عامة . وخفتت أصوات أصحاب الطبقة الأولى ، فنههم من أثر الصمت ، أو اتجه إلى التراث ، أو لجأ إلى الرمز الذى لا يحدم قضية ولا يحقق هدفاً

وتحولت أجهزة الإعلام ، من صحافة وإذاعة ومسرح وستارة وغيرها ، إلى أبواق لتمجيد الحاكم وإظهار الظلم بمظهر العدل وإلباس الليل ثوب النهار . كل هذا ، والحاكم كلما سمع تمجيداً ، قال كما تقول جهنم : هل من مزيد ؟

وفى غمار هذه الموجة ، انبثق صوت الغضب والسخط والرفض ، وبدأت بواكيره تظهر فى الأدب ، من شعرو قصة ورواية

ولكن عاملين حولاً هذا الصوت إلى نقمة جديدة تضاف إلى النعمة القائمة :

الأول ، أن الغضب والسخط والرفض انصبت حتى على الأسس الخيرة الموروثة من العهود الطيبة . فأنكر الغاضبون التراث ، وأنكروا التقاليد ، وأنكروا الأخلاقيات ، وأنكروا بحور الخليل ، وأنكروا مدرسة شوقي ، وأنكروا جهاد سعد زغلول ، وأنكروا مسرح رمسيس . وأرادوا أن يهدموا كل شيء بدعوى أنهم سينشئون جديداً ، ولكنهم لم يأتوا بجديد يستحق البقاء ، أو يستحق مجرد النظر

والثانى ، أن عناصر الشر احتضنتهم حتى استغرقهم بمختلف الإغراءات ، فسادت دعوات الشعوبية والإلحاد والمرطقة وسقوط القيم الكبيرة فى الحياة ولو شاء الشيطان أن يستمر هذا التيار لفقدنا البقية القليلة الباقية من الأمل ،

التي تخلفت بعد مذبحة سنة ١٩٦٧

ولكن مشيئة الله كانت فوق مشيئة الشيطان ، فجاءت الثورة على الثورة فى سنة ١٩٧١ ، وبدأت مسيرة التصحيح ، وبدأت معها العودة إلى القيم ، والأوبة إلى الله ، ودعوة العلم والإيمان

ولعل هذا هو ما يسميه أستاذنا توفيق الحكيم بعودة الوعي
وقد كثر الحديث عن عودة الوعي . وجلسنا ، توفيق الحكيم وأنا وأصحابنا
نتحدث عنها ، ونستعرض الحملة الضارية التي ووجهت بها هذه الرسالة . هنا
في مصر ، وفي لبنان

وتساءل الغاضبون : أين كان توفيق الحكيم طوال هذه السنوات ؟ أو لم يكن
في طليعة الركب الذي كان يمتدح الحاكم ؟
وقال توفيق الحكيم : وماذا يملك الإنسان أن يصنع في عصر يصاد فيه الحاكم
شجاعة الإنسان ، ويهدده بالسجن والقيد والتعذيب والإرهاب والموت ؟
وأضاف إلى ذلك قوله : إننا لا ننكر أنه كانت للحاكم إيجابيات تستحق
الثناء ، فأثنيّا عليها . . . أما سلبياته ، فقد سكتنا عنها لأننا لم نكن نملك - إزاء
الشجاعة التي صادرها في الشعب - إلا الصمت
واختتم حديثه بقوله :

- ولكن الحساب العلمي الصحيح في حياة كل حاكم ، يكون بعد رحيله . . .
فبعد رحيله ، يمسك المحاسب بالقلم ، ويرصد ما له في باب « له » وما عليه في باب
« منه » . . . ويتأمل نتيجة الميزانية ، ويحكم بها إذا كان رصيده مديناً أم دائناً
هذا هو المنطق الصحيح الذي تأخذ به جميع الشعوب ، والذي نصصح به
مسيرة التاريخ

ولقد كان ستالين معبود شعبه في زمانه
لم يكن عند شعبه - اللاديني - إله إلا هو
ولكنه حوكم بعد موته ، وكشفت أوراقه أنه أساء بأكثر مما أحسن ، وأنه
أعدم من أبناء شعبه رقماً يتراوح بين مليونين وثلاثة ملايين من الأنفس
هكذا حوكم ستالين . . .

وهكذا صدرت أحكام التاريخ على هاتيبال وموسوليني وهتلر ونابليون والسلطان
عبد الحميد والازار وسائر دكتاتوري التاريخ . . بعد أن أساءوا إلى شعوبهم
بأكثر مما أحسنوا

* * *

وكنا - في البداية - نتحدث عن الأدب والفن ، ولكن الحديث جنح بنا حتى جمع

فإذا لم يكن هناك بد من العودة إلى حديث الأدب والفن ، فإنني أقول إننا قد بدأنا فجراً جديداً في يوم ٦ أكتوبر . لندخل عصراً جديداً أساسه التخطيط بدأنا نفكر في التخطيط الحضارى لحياتنا الجديدة حتى سنة ٢٠٠٠

ولكننا فكرنا في التخطيط للصناعة والتجارة والزراعة والملاحة . . . وكل شيء . . . ونسينا أن نخطط للأدب والفن ، مع أنهما غذاء الروح ، والروح هي التي تمسك بدقة كل شيء في المجتمع

ولهذا ، فإنني أطالب الدولة بإصدار ورقة عمل مدارها الأدب والفن ، تطرح على الأدباء والفنانين الراسخين ، وعلى المجالس المتخصصة ، كمجلس الفنون والآداب ، ومجمع اللغة ، وهيئة المسرح والسينما ، ويدور حولها حوار مفتوح وصريح .
تتلور فيه الأفكار التي يجب أن يقوم على أساسها تخطيطنا للأدب والفن حتى سنة ٢٠٠٠ .